مكتبة الجاحظ (١)

للأستاذ عبد السلام هارون

أعنى بها تلك الآثار التأليفية التى خلفها الجاحظ ، زعيم البيان العربى وشيخ كتاب العرب ، وأستاذهم الأول فيما يشهد الحق .

وقبل أن نتوغل فى هذا البحث ، الذى أردنا به التنويه بفضل هذا الرجل وإظهار ماطوته الأيام من براعة عبقريته نقدم له بترجمة يسيرة .

فهو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، لقب بهذا اللقب لجحوظ عينيه جحوظا ظاهرا . وقد أكسبه ذلك الجحوظ قبحا ظريفا ، جعله أداة صالحة للتنذر والمفاكهة

قال الجاحظ : ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده . فلما رآنى استبشع منظرى فأمر لى بعشرة آلاف درهم . وصرفنى .

وقال الجاحظ أيضا : ما أخجلنى أحد مثل امرأتين ، رأيت إحداهما فى العسكر وكانت طويلة القامة ، وكنت على طعام .. فأردت أن أمازحها فقلت : انزلى كلى معنا ! فقالت : اصعد أنت حتى ترى الدنيا .

وأما الأخرى فإنها أتتنى ، وأنا على باب دارى ، فقالت : لى إليك حاجة ، وأريد أن تمشى معى ! فقمت معها إلى أن أتت بى إلى صائغ يهودى فقالت له : مثل هذا ! وانصرفت . فسألت الصائغ عن قولها فقال : إنها أتت إلى بفص وأمرتنى أن أنقش لها عليه صورة شيطان فقلت ياسيدتى : مارأيت الشيطان ! فأتت بك لأنقش الفص على مثالك !

والجاحظ عربى ، فهو كنانى ينتمى الى كنانة بن خزيمة ، وهو حجة ضد الشعوبية الذين يزعمون أن الأدب العربى واللغة العربية لم تنهض إلا على أكتاف الموالى والفرس .

---

(١) محاضرة ألقيت فى نادى دار العلوم فى ٤ من مارس سنة ١٩٦٣

ولد الجاحظ بالبصرة سنة خمسين ومائة . وتوفى بها سنة خمس وخمسين ومائتين منحه الله عمرا طويلا ، استغله استغلالا صالحا فى نصرة البيان العربى ،وإذاعة الثقافة الإسلامية ، . فكان زعيم مدرسة أدبية تنتمى إلى الاسهاب ، ولطف الاحتجاج ، ودقة التبيين مع إشاعة الفكاهة والتهكم . وكان أيضا زعيم مدرسة دينية ، فكان رأس فرقة من فرق الاعتزال ، عرفت بالفرقة الجاحظية .

التأليف فى عصر الجاحظ

عاش الجاحظ فى دهر كان يزخر بالعلوم والآداب ، هو العصر الذهبى للأمة العربية ، عصر هارون والمأمون والمتوكل ، حين كانت معاهد البصرة وبغداد والكوفة وقرطبة وسائر عواصم الاسلام ، تفيض بالآداب والعلوم والفنون،وكان المعين فياضا مترعا ، والتأليف والترجمة لهما دوى شديد فى كل صقع ، والعلماء والأدباء فى نشاط عجيب ، يصل الليل بالنهار والغدو بالآصال .

فعاصر الجاحظ من علماء العربية أبا عبيدة ، والأصمعى ، وأبا زيد الأنصارى وكانوا جميعا شيوخه . وأخذ النحو عن أبى الحسن الأخفش ، والكلام عن النظام وشافه الجاحظ فصحاء العرب الذين كانوا يفدون إلى مربد البصرة . فلقن منهم كثيرا من فصاحتهم ، وارتشف هنا البيان العربى الصافى ، وهذه اللهجة الصحيحة ، وتلك المعرفة الفطرية القوية .

ويعرف التاريخ فى عصر الجاحظ أربعة ممن ضربوا بسهم كبير فى وفارة الانتاج الفكرى والتأليف ، واستووا على غاية قصر عنها من عداهم .

فالواحد :ابو عبيدة معمر بن المثنى ١١٠ — ٢٠٩ وكان من أهل البصرة ولد وتوفى بها . قال صاحب الوافيات : « وتصانيفه تقارب مائتى مصنف » . وقد سرد ابن النديم منها فى الفهرست مائة وخمسة ، وقال فيه الجاحظ : لم يكن فى الأرض خارجى ولا جماعى أعلم بجميع العلم منه » .

والثانى : أبو الحسن على بن محمد المدائنى ١٣٥ — ٢٢٥ له نحو من مائتين وأربعين مصنفا على ما أحصيت فى فهرست ابن النديم . وقد روى عنه الجاحظ فى البيان وفى الحيوان روايات كثيرة .

والثالث : هشام بن محمد الكلبي الكوفي المتوفى سنة ٢٠٦ عددت كتبه في الفهرس فألفيتها نحو مائة وأربعين مؤلفا .

والرابع إمام العربية والدين محمد بن إدريس الشافعي ، ولد سنة ١٥٠ وهي سنة ولادة الجاحظ وتوفي سنة ٢٠٤ .

وقلت : إمام العربية ؛ لأن كثيرا من الناس لا يعلم فضل الشافعي في هذه الناحية والحق أن الشافعي كان من أدق الناس خبرة بالعربية ، وأوسعهم فقها فيها، واطلاعا على أسرارها وحسبك أن تعرف أن الأصمعي وهو الإمام الكبير — قرأ على الشافعي أشعار الهذليين وضبطها وصححها . وحسبك أيضا أن تطلع على كتابيه العظيمين ، وهما الأم في مسائل الفقه ، والرسالة وهي في مسائل أصول الفقه، فتعرف إلى أي مدى وصل هذا الرجل في معرفة العربية ، ودقة التعبير العربي كذلك . وهذا ماحمل الجاحظ ان يقول فيه : « نظرت في كتب هؤلاء النبغة الذين نبغوا في العلم فلم أر أحسن تأليفا من المطلبي ، كأن لسانه ينظم الدر » .

وقد سرد ياقوت من كتب الشافعي مائة واثنين وأربعين كتابا ، منها كتب تدخل في كتاب الأم .

عاصر الجاحظ هذا الرهط ، وأدرك هذه الجماعة التي منحت الثقافة العربية ثراء وافرا ، فكان له بهم أسوة ، ونهج نهجهم الذي سلكوا . وكان ذلك إلى ماوهبه الله من امتداد العمر ، وتملك الفصاحة ، من أقوى الأسباب التي تضافرت على إنشاء مكتبة الجاحظ .. الغنية بعددها وبقيمتها الادبية والفكرية والدينية أيضا » .

ومن العوامل القوية التي أدت إلى اثراء مكتبة هذا الرجل ، شدة ولوعه بالقراءة وجلده عليها . قال أبو حفان : « فأما الجاحظ فإنه لم يقع بيده كتاب قط الا استوفى قراءته كائنا ما كان حتى انه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر » .

وسائل النشر في عصر الجاحظ

ويعجب العاجب من وجود هذه الظاهرة الغريبة في ذاك العصر .. أعني كثرة المؤلفات لرجل واحد . يعجب العاجب لظهور ذلك في عصر كانت وسائل النشر فيه غير متوافرة . فليست هناك مطبعة ، وليست هناك هيئات أدبية تعمل على اذاعة

المؤلفات ونشرها . ولم يكن القراء حينئذ بالكثرة التى نراها الآن .. فما السر إذن فى ذلك ؟ .

لم تكن هناك مطبعة حقا ، تستطيع إخراج الآلاف من الكتب فى وقت وجيز ولكن أمرا آخر له خطره وجليل شأنه ، كان يقوم مقام المطبعة ، وكان له نشاط لايستهان به . ذلك هو النظام الذى كان يعرف بنظام الوراقة . يتخصص به أناس معروفون ، ينقلون الكتب ويكتبونها ، ويشترونها ويبيعونها ويجلدونها ، ويصححونها أحيانا .. هؤلاء الوراقون كانوا بمثابة مطابع حية تنشر المعارف فى تلك العصور القديمة ، وكان لهم خطر عظيم لايقل عن خطر هذه المطابع الحديدية فى عصرنا هذا .

والذى يتصفح معجم الأدباء لياقوت ، يستطيع أن يمس عظمة هذه الدولة ، أعنى دولة الوراقين ، الذين كان بينهم كثير من أعلام الأدباء والعلماء والشعراء . وبحسبك أن تعرف أن ياقوتا نفسه كان وراقا ينسخ الكتب بالأجر كما يحدثنا بذلك ابن خلكان . وكان كذلك من كبار تجار الكتب . قال يتحدث عن نفسه فى أثناء ترجمة قابوس بن وشمكير : « توجهت الى الشام وفى صحبتى كثير من كتب العلم أتجر فيها » .

وياقوت فى كتابه « معجم الأدباء » ناقد صير فى لتلك الطائفة من الوراقين . فيقول : « هذا مليح الخط ، متقن الضبط » ويقول : هذا ردىء الكتابة ، سقيم الخط ومما قاله فى ترجمة من يدعى الفضل بن عمر بن منصور . « وخطه فى غاية الجوده ، على طريقة ابن هلال البواب . ولذا أوردناه فى هذا الكتاب » . فيجعل سبب ذكره فى هذا المعجم أنه وراق جيد الخط حسن الكتابة .

وحسبك أيضا أن تعرف أن ابن النديم صاحب الفهرست كان أحد أولئك الوراقين الاعلام . وأن تعرف أن صناعته هذه الجليلة هى التى يسرت له أن يخرج لنا هذا الكتاب الخالد ، الذى نرجع اليه كلما أظلمت علينا مسالك البحث فى غيره من الكتب ، فنظفر منه بما يروى الغلة ويعين على التحقيق .

وأما الهيئات الادبية فكانت معروفة أيضا ، وإن لم تكن بمظهرها الحديث الذى

نلسبه بين ظهرانينا . فهؤلاء الوراقون الأولى ذكرت كانوا من أعضاء هذه الهيئة . وكان أيضا من أشخاص الولاة والخلفاء هيئات أدبية تعمل على تشجيع نشر الكتب وإذاعتها واجازة مؤلفيها بالمنح العظيمة . والعطايا الفاشية .

وكانوا ينفقون على التأليف وعلى الترجمة وسائر ضروب التثقيف العام والخاص مالا يستهان به من الأموال الطائلة . ويمتد بنا القول لو ذهبنا فى بيان ذلك الجود الحاتمى الذى كانت تسخو به أيدى الخلفاء والولاة والسراة .

وأما أن القـــراء لم يكونوا كثيرين فى تلك العصور ، فليس ذلك بمؤثر فى ذيع الثقافة ، وانبلاج نورها بين الناس . بل نستطيع أن نقول : ان المثقفين فى ذلك العصر كان عددهم يفوق عدد المثقفين فى عصرنا هذا .

وقلت : « المثقفين » ولم أقل « المتعلمين » لأن نسبة المتعلمين فى عصرنا هذا أكثر عددا بلا ريب من المتعلمين فى عصر الجاحظ . ولكن المثقفين أعنى من توغلوا فى مختلف نواحى العلم توغلا كبيرا كانوا فى عصر الجاحظ أكثر عددا منهم فى عصرنا هذا ، فكان هناك صبيان يفتون فى مسائل الفقه ، وكانت هناك جوار يقلن الشعر ويغشين مجالس الأدب ، ويروين حديث الرسول . وكان أيضا رجال كثيرون لا يحصيهم العد ، وتعرفهم كتب التراجم وكتب الرجال .

كان من أولئك المثقفين المنورين مشجع قوى على اثراء المكتبة العربية ، وعلى كثرة انتاج المؤلفين وكثرة انتاج المؤلف الواحد أيضا .

أسلوب الجاحظ فى التأليف

سلك الجاحظ مسلكا غريبا فى التأليف ، فطرق أبوابا عجيبة منه ، فهو يحدثنا عن البخلاء ، وعن الحاسد والمحسود ، وعن تفضيل النطق على الصمت ، ويحدثنا عن حيل اللصوص ، وعن غش الصناعات .

ويتكلم فى القيان ، وفى أخلاق الكتاب ، وفى المعلمين والطفيليين والملوك والمغنين ، وأخلاق الفتيان ، وفضائل أهل البطالة .

ويتحدث عن جميع الأنواع البشرية من ترك ، وصقالبة ، وحمران ، وسودان وبيض ، وعرب وعجم ، وعرجان وبرصان وحول وعور .

وعن الطوائف الدينية ، كالشيعة ، والزيدية والمشبهة والجهمية والمعتزلة، ويذكر لنا مذاهب اليهود والنصارى والمجوس .

يتحدث عن نقض مذاهب الأطباء ، وعن التفاح والنبيذ والقلم والكتب، والنرد والشطرنج . يصنع فى كل من أولئك كتابا .

فكأن الجاحظ لم يترك شيئا مما يجول بخاطر إنسان ، أو يمر بذهنه ، إلا كتب وأبدع إبداعا وأوفى على الغاية .

وأذكر هنا قولا صادقا لأبى العيناء . وذلك أن سائلا سأله وقال : ليت شعرى أى شىء كان الجاحظ يحسن ؟ فأجابه أبو العيناء : ليت شعرى أى شىء كان الجاحظ لايحسن ؟ !

وشىء آخر امتاز به الجاحظ من بين جمع المؤلفين فى عصره ، وهو ادمان الفكاهة . فهو لايبرح يشيع الفكاهة فى تصانيفه ، ولايدع فرصة تصلح للفاكهة والمطايبة إلا انتهزها انتهازا . وأنت تستطيع أن تتصفح أى كتاب أو أية رسالة له ، فتجد فى ذلك البرهان واضحا ، والدليل ساطعا .

وتعد رسالة التربيع والتدوير ، التى صنعها فى من يدعى أحمد بن عبد الوهاب أبرع ما كتب الجاحظ فى فن الفكاهة.

وكان أحمد — فيما يقول الجاحظ — مفرط القصر ويدعى أنه مفرط الطول وكان مربعا وتحسبه مدورا ، وهو فى ذلك يدعى السباطة والرشاقة .

يقول له الجاحظ : « وهل غاية الجميل إلا وصفك ، وهل زين البليغ الامدحك وهل يأمل الشريف الا اصطناعك ، وهل يقدر الملهوف إلا غياثك . وهل للناسج رجز الا فيك ، وهل يحدو الحادى الا بذكرك ؟! لا بل أين الحسن المضمت، والجمال المفرد ، والقد العجيب ، والكمال الغريب ، والملح المنثور ، والفضل المشهور الالك وفيك . وهل على ظهرها جميل حسيب ، أو عالم أديب الا وظلك اكبر من شخصه وظنك أكبر من علمه ؟ ! وهل أغلت الخضراء ذا لهجة أصدق منك ، وهل حملت النساء أجل منك .

ويقول : « وما على ظهرها خود الا وهى تغبر باسمك ، ولاقينة الا وهى تغنى

بمدحك ، ولافتاة الا وهى تشكو بتاريخ حبك ولامحجوبة الا وهى تنقب الخروق لمرك ، ولاعجوز الا وهى تدعوللك »

ويقول فى رسالة النساء : « وبعد فايما أحسن وأملح ، وأشهى وأغنج : أن يغنيك فحل ملتف اللحية كث العارضين أو شيخ متخلع الأسنان مغضن الوجه ثم يغنيك اذا هو تغنى بشعر ورقاء بن زهير :

رأيت زهيرا تحت كلكل خالد فأقبلت أسعى كالعجول أبادر

أم تغنيك جارية كأنها طاقة نرجس ، أو كأنها ياسمينة ، أو كأنها خرطت من ياقوته أو من فضة مجلوة — بشعر عكاشة بن محصن :

من كف جارية كأن بنانها من فضة قد طوقت عنابا

وكأن يمناها اذا نقرت بها تلق على الكف الشمال حسابا

وللجاحظ فى البيان والتبيين من حشو الفكاهة وجمع النوادر ما اذا سردنا بعض شواهده طال القول بنا .. وفى كتاب الحيوان مطايبات شتى ، ومتعة طيبة للقارىء

كان الجاحظ رجلا مؤالفا متصلا بجمهور الناس اتصالا شديدا . فهو جليس الخلفاء والوزراء والكتاب . وهو أيضا يجلس الى الباعة والكناسين والحواة والموسوسين والمجانين . وكان يتعرف الى بداة الأعراب ، كما كان مصادقا للترك وللروم والسنديين وكان يجالس الشيوخ والمسان ، كما كان يجالس الصبيان .

روى ياقوت أن سلام بن يزيد قال يصف دخوله على الجاحظ مرة : قال سلام: « وسألت عن منزله — يعنى منزل الجاحظ — فأرشدت ودخلت اليه فاذا هو جالس وحواليه عشرون صبيا ، ليس فيهم ذو لحية غيره » .

وواضح أن تلك المخالطة قد أكسبته معرفة كاملة بطبائع الناس ، وأطلعته على كثير من مصادر الفكاهة .

ونستطيع أيضا أن نقول : ان الجاحظ كان صيادا ماهرا للظرفاء . واليك مثلا من ذلك .

قال الجاحظ : كان يأتينى رجل فصيح من العجم ، فقلت له : هذه الفصاحة وهذا البيان ! لو ادعيت فى قبيلة من العرب لكنت لاتنازع فيها .

وافرا ، وأعداهم ذلك على جمال فنهم ، ونضرة حديثهم ، وظهر عليهم فضل الجاحظ ظهورا بينا .

والأمر الرابع — الذى نلمحه فى كتب الجاحظ هو التنويع وهذا راجع إلى طبيعة الأستاذية فى الجاحظ ، التى أشرت إليها قريبا . فأخص خصائص المعلم أن يتنقل بتلاميذه كلما طال عليهم الوقت فى معارف شتى ، حتى لا يملوا درسه ويسأموا مايلقنهم إياه من مسائل العلم أو مسائل الأدب .

وهو يقول فى ذلك : « فانى رأيت الأسماع تمل الأصوات المطربة ، والألحان الحسنة ، والأوتار الفصيحة ، إذا طال عليها ذلك . وما ذلك إلا فى طريق الراحة التى إذا طالت أورثت الغفلة » .

ويردد قول أبى الدرداء : « إنى لأجم نفسى ببعض الباطل ، كراهة أن أحمل عليها من الحق مايملها » .

ولذلك أيضا نجد الجاحظ يصطنع الاستطراد . ويستعمل التعقيب ، وليس ذلك عجزا منه ولا التفاتا عن الغرض الذى نصب له نفسه ، وإنما ليروح عن القارىء ويستجلب نشاطه ويجدد انتباهه .

وأمر خامس هو من خصائص مكتبة الجاحظ ، وهو تناولها كثيرا من الأمور التى تبدو أنها متناقضة ، والتى تشعر القارىء لأول وهلة أن ذلك الرجل يناقض نفسه فيما يكتب فهو يمدح النبيذ حينا ويذمه حينا آخر ، وهو يمدح الوراقين تارة ويذمهم أخرى .

ولكن المنصف يرى أن الرجل لم يناقض نفسه ، بل نظر إلى الشىء الواحد نظرتين من ناحيتين مختلفتين . ولكل أمر من الامور مايقتضى مدحه حينا وذمه حينا آخر ، حتى الصدق وحتى الأمانة وهما الأساس الأول للفضائل

وكلكم يذكر قول عمرو بن الأهتم « رضيت فقلت أحسن ماعلمت وغضبت فقلت أقبح ماعلمت » وقول رسول الله فى ذلك « إن من البيان لسحرا » وما كذبت فى الأولى ولقد صدقت فى الثانية

وهذه الخاصة الجاحظية هى بلا ريب برهان ساطع على ذكاء روح هذا الرجل، وقوة فنه وتمام اقتداره .

وأمر سادس — تمتاز به مكتبة الجاحظ ، هو حرية الفكر ، التى لا يفتأ ينادى بها عند كل مناسبة . فهو شديد التهكم حينما يتحدث عن حجة لا يسيغها العقل ، ولا يقرها الفكر الحر . وهو يحشد أقصى ما يستطيع من الحجج حين يعرض رأيا لأحد الجامدين أو المتعلقين بأذيال الخرافات والأساطير ، فاذا الأساطير والخرافات تتهالك فى يديه ، كما يتهالك الليل البهيم للصبح الطالع .

وهو كذلك يعترض كثيرين من العلماء وكبار الفلاسفة . وفى مقدمتهم أرسطو وكذلك أستاذه أبو اسحاق ابراهيم بن سيار النظام . وكتاب الحيوان ميدان فسيح يجول فيه صاحبنا ويصول ، برأيه الحر ، ويرفع علم الثورة على المتعنتين من المفسرين والقصاص والمتزمتين ، بل على المتحذلقين من اللغويين والأدباء ، فهو يندد فى الجزء الأول من الحيوان بكتب أبى الحسن الأخفش واستغلاقها على الناس ، وهو يتهكم بالمفسرين وأصحاب الأخبار الذين زعموا أن أهل سفينة نوح كانوا قد تأذوا بالفأر فعطس الأسد عطسة فرمى من منخريه بزوج سنانير . فلذلك السنور أشبه شىء بالأسد . وأخرج الفيل زوج خنازير . فلذلك الخنزير أشبه شىء بالفيل . ثم هو يروى سخرية أبى عبيدة من هذا الخبر ، وضحكه مما فيه من خرافة .

والجاحظ أيضا يتهكم بالقصاص ، ويصور لنا صورة طريفة منهم متمثلة فى شخص « أبى كعب القاضى » حين حمل المستمعين على التهليل والتكبير ليخفى أمرا مستنكرا ضاقت به نفسه ولم يستطع إمساكه .

ويروى أيضا أن أبا كعب هذا أرسل رسولا له إلى مجالس الوعظ فى مسجد عتاب ، ومعه هذه الرسالة : يقول لكم أبو كعب انصرفوا ؛ فانى قد أصبحت اليوم مخمورا ! .

وأمر سابع تمتاز به مكتبة الجاحظ ، هو كثرة تناول المسائل الكلامية ، والحرص على اقتناص مناسباتها فى أثناء الكتب . فبينا نرى الجاحظ يفيض فى الحديث عما قال العرب من شعر بديع فى النار إذا به يهجم على مسألة من مسائل

يخص فيها أحد من قبل ، أو التى يحجم الناس عن الكتابة فيها ، استهانة بشأنها .. أو فرارا من التهمة فيها . ولكن الجاحظ رجل جرىء ، رجل جرىء حقا . فلم يحدثنا التاريخ أن رجلا ألف كتابا فى ..... فماذا ؟ فى حيل اللصوص . ولكن الجاحظ يتكلم فى ذلك ويسهب فى القول ويأتى بالعجب العاجب . وقد ذكر من هذا الكتاب فصلا فى الجزء الثانى من الحيوان . كما نقل الراغب الأصفهانى فى محاضراته بعض هذه الفصول ، فنعرف أن هؤلاء اللصوص كانت لهم مدرسة ، وكان لهم أستاذ يدعى « عثمان الخياط » وكان زعيمهم . قالوا سمى بالخياط ؛ لأنه نقب على أحذق الناس وأبعدهم فى صناعة التلصص وأخذ مافى بيته . وخرج وسد النقب كأنه قد خاطه . فسمى بذلك .

ومن أقوال عثمان الخياط لبعض أتباعه ومريديه من اللصوص : « لم تزل الأمم يسبى بعضهم بعضا ، ويسمون ذلك غزوا ، وما يأخذونه غنيمة ، ويذكرون أن ذلك من أطيب الكسب . وأنتم فى أخذ مال الغدر والفجرة أعذر . فسموا أنفسكم غزاة ، كما سمى الخوارج أنفسهم شراة ! » .

ومن مأثور قول عثمان الخياط : « اللص أحسن حالا من الحاكم المرتشى ، والقاضى الذى يأكل أموال اليتامى ! » .

وقد كتب الجاحظ أيضا فى « غش الصناعات » قال صاحب الفرق بين الفرق فى شأن هذا الكتاب الخطير : « وقد أفسد به على التجار سلعهم » .

وغير هذين فى هذا الفن كثير .

والأمر التاسع : أن هذه المجموعة القيمة من كتب هذا الرجل ، ترسم لنا صورة طويلة عريضة من صور الحياة فى العصر العباسى . هذه الصورة نرى فيها الثقافة الفكرية فى نواحيها المتعددة ، وفروعها المتوشجة . وكأن هذا الرجل لم يترك علما من العلوم التى عرفها القوم ، ولا فنا من الفنون إلا اطلع عليه وأخذ منه بنصيب قليل أو كثير .

وهذه الصورة أيضا نرى فيها الحياة السياسية التى كان يحياها القوم . ففى رسالته إلى الفتح بن خاقان ، التى تتضمن مناقب الترك وعامة جند الخلافة ، برنامج بلغ توغل

الترك والفرس فى سياسة الدولة العباسية ، ومقدار سلطانهم واعتزازهم بأنفسهم ، ويروى لنا طرفا من أمر الخوارج ويصف لنا بأسهم .

وهذه الصورة أيضا نرى فيها الحياة المدنية ، حتى لكأنما نعايش العباسيين ، فنرى منازلهم وحماماتهم ومصابيحهم ، وملابسهم ، ومطاعمهم ، ومشاربهم ، ومآدبهم وصناعاتهم ، ونظمهم الاجتماعية والصحية والعمرانية . وغير ذلك من دقائق الحياة التى انتبه الجاحظ اليها انتباها دقيقا ، ولا سيما فى « كتاب البخلاء » الذى يعتبر بحق أصدق مصورة راسمة للعصر العباسى ، وأهم مرجع فيه .

ولا يقتصر الأمر على تصوير العراق ، فهو يصور أيضا أحوال سائر الأمم المعاصرة من الفرس والهند والصين وأهل مصر والمغرب .

لذلك كانت مكتبة الجاحظ سندا قويا لمن أراد أن يلم بدقائق العصر العباسى ، وأن يتعرف إلى الحياة العامة فيه .

والأمر العاشر : هو اهتمام الجاحظ بتسجيل الحياة اليومية . وهو فى ذلك قد ضرب الرقم القياسى — كما يقولون . فغيره من المؤلفين إنما كان جل همه أن يذكر الأخبار القديمة ، والآثار المروية ، كما كان يفعل المدائنى وابن قتيبة ومن أتى بعدهم من رواة الأخبار . فهم لا يولون الأخبار المعاصرة إلا الجانب اليسير من اهتمامهم ولكن الجاحظ كان لا يفتأ يذكر أسماء معاصريه ، ويروى نوادرهم ، ويتندر بهم إذا شاء . وهو لا يدع شيخا أو شابا ، ولا عاقلا أو مجنونا ، ممن تقع له النادرة ، أو تصدر عنه الفكاهة ، أو يتصل به الخبر إلا عرض ذلك بين يدى قارئه ، وأطلعه عليه إطلاعا فهو بلا ريب صحفى العباسيين ، وهو بلا ريب شيخ الصحافة العربية ، وأول من حاول إنشاء الصحف والمجلات العربية .

ذيوع كتب الجاحظ

كانت كتب تذيع وتشيع ، وتطير إلى الآفاق البعيدة فى حياته للرغبة الملحة فيها ولحرص الناس على مافيها من خير كثير

واليك صورة تنبيك عن مبلغ هذا الذيع ، وتقف بك على مقداره .

روى صاحب تاريخ بغداد عن يحيى بن على أنه قال : « حدثنى أبى قال : قلت للجاحظ : إنى قرأت فى فصل من كتابك المسمى كتاب البيان والتبيين إن مما يستحسن من النساء اللحن فى الكلام واستشهدت ببيتى مالك بن أسماء :

وحديث ألذه هو مما ينعت الناعتون يوزن وزنا
منطق صائب وتلحن أحيا نا وخير الحديث ما كان لحنا

قال : هو كذاك . قلت : أفما سمعت بخبر هند بنت أسماء — وهى أخت صاحب هذين البيتين — مع الحجاج حين لحنت فى كلامها فعاب ذلك عليها فاحتجت ببيت أخيها ، فقال لها الحجاج : إن أخاك أراد أن المرأة فطنة فهى تلحن بالكلام إلى غير المعنى فى الظاهر ، لتستر معناه وتورى عنه ، وتفهمه من أرادت بالتعريض ، كما قال الله تعالى : « ولتعرفنهم فى لحن القول » ولم يرد الخطأ من الكلام والخطأ لا يستحسن من أحد . فوجم الجاحظ ساعة ثم قال : « لو سقط إلى هذا الخبر لما قلت ما تقدم! فقلت له : فأصلحه . فقال الآن وقد سار الكتاب فى الآفاق . هذا لا يصلح !

فهذه صورة من صور ذيع كتب الجاحظ .

تقدير القدماء لكتب الجاحظ

نترك القول لياقوت يحدثنا حديثا عجبا فى هذه الناحية ، فهو يروى أن أبا حيان قال : « ومن عجيب الحديث فى كتبه ما حدثنا به على بن عيسى النحوى الشيخ الصالح قال : سمعت ابن الاخشاد شيخنا أبا بكر يقول : ذكر أبو عثمان فى أول كتاب الحيوان أسماء كتبه ليكون ذلك كالفهرست ، ومر بى فى جملتها : الفرق بين النبى والمتنبى وكتاب دلائل النبوة ... فأحببت أن أرى الكتابين ولم أقدر على واحد منهما وهو كتاب دلائل النبوة ... فهمنى ذلك وسامنى فى سوء ظفرى به . فلما شخصت من مصر ودخلت مكة — حرسها الله — حاجا ، أقمت مناديا بعرفات ينادى — والناس حضور من الآفاق على اختلاف بلدانهم وتنازح أوطانهم ، وتباين قبائلهم وأجناسهم من المشرق الى المغرب ، ومن مهب الشمال إلى مهب الجنوب ، وهو المنظر الذى لا يشابهه منظر — : رحم الله من دلنا على كتاب الفرق بين النبى والمتنبى لأبى عثمان الجاحظ على اى وجه كان !

قال : فطاف المنادى فى ترابيع عرفات وعاد بالخيبة وقال : حجت الناس منى ولم يعرفوا هذا الكتاب ولا اعترفوا به .

قال ابن الأخشاد : وإنما اردت بهذا ان أبلغ نفسى عذرها . قال ياقوت : « وحسبك بها فضيلة لأبى عثمان ان يكون مثل ابن الاخشاد وهو من هو فى معرفة علوم الحكمة ، وهو رأس عظيم من رءوس المعتزلة يستهام بكتب الجاحظ حتى ينادى عليها بعرفات والبيت الحرام . قال ياقوت : وهذا الكتاب موجود فى ايدى الناس اليوم لاتكاد تخلو خزانة منه . ولقد رايت انا منه نحو مائة نسخة او اكثر.

ثم نعود إلى المسعودى — وهو ممن يعد فى خصوم الجاحظ — فنجده يقول فى نعت كتب الجاحظ : « وكتب الجاحظ مع انحرافه المشهور تجلو صدا الأذهان وتكشف واضح البرهان ؛ لأنه نظمها احسن نظم ، ورصفها احسن رصف ، وكساها من كلامه اجزل لفظ . وكان إذا تخوف ملل القارىء وسآمة السامع خرج من جد الى هزل ، ومن حكمة بليغة الى نادرة طريفة . وله كتب حسان منها كتاب البيان والتبيين وهو اشرفها ؛ لأنه جمع فيه بين المنثور والمنظوم ، وغرر الأشعار ، ومستحسن الأخبار ، وبليغ الخطب ما لو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به ، وكتاب الحيوان ، وكتاب الطفيليين والبخلاء . وسائر كتبه فى نهاية الكمال ، ما لم يقصد منها الى نصب او إلى دفع حق »

ثم نتراجع إلى الوراء ونسأل الجاحظ نفسه أن يحدثنا حديث الصدق عن كتبه ونظرة الناس اليها ، فإذا هو يجيبنا فى ثقة ويقين واعتزاز بالنفس . قال فى الجزء الثانى من البيان :

« ولما قرأ المأمون كتبى فى الإمامة فوجدها على ما أمر به ، وصرت اليه — وكان قد أمر اليزيدى بالنظر فيها ليخبره عنها — قال لى : قد كان بعض من نرتضى عقله ونصدق خبره ، خبرنا عن هذه الكتب بإحكام الصنعة ، وكثرة الفائدة . فقلت : قد تربى الصفة على العيان فلما رأيتها رأيت العيان قد أربى على الصفة . فلما فليتها أربى الفلى على العيان . كما أربى العيان على الصفة » .

وهذه شهادة تاريخية جليلة . لها قيمتها ولها قدرها .

عدد كتب الجاحظ

والآن ننتقل الى الحديث عن عدد كتب الجاحظ . فنجد أن هذا الرجل قد خرج عن زهاء ثلثمائة وستين مؤلفا . فى ألوان شتى من المعرفة . رأى أكثرها فى مشهد أبى حنيفة النعمان ببغداد سبط ابن الجوزى المتوفى سنة ٦٥٤ .

قال فى كتابه « مرآة الزمان » عند ذكر الجاحظ : « أما مصنفاته فثلثمائة وستون مصنفا . ووقفت على اكثرها فى مشهد الامام ابى حنيفة » .

هذا اقصى تقدير عددى وصلت اليه كتب الجاحظ . على ان ادنى ماتنزل اليه ان تكون مائة ونيفا وسبعين كتابا قال ابن حجر فى لسان الميزان : « وسرد ابن النديم كتبه ، وهى مائة ونيف وسبعون كتابا » هذا آخر كلام ابن حجر .

ووجدت ياقوتا فى معجم الأدباء قد سرد منها مائة وثمانية وعشرين مصنفا .

وليس يمكننا القطع برقم خاص لعدد كتب الجاحظ . ولكن نستطيع ان نقول : إن الجاحظ كان من اخصب علماء عصره وادبائه انتاجا ان لم نقل انه اخصبهم واغزرهم فيضا !

ويسأل السائل : اين طوح الدهر بهذه المجموعة الجاحظية الهائلة ؟ وكيف لم يظهر للناس منها الا مقدار يسير تعده اصابع اليد ؟

فالحق ان كثيرا من كتب الجاحظ قد ضاع فيما ضاع من آثار السلف ، وعدت عليه عوادى الأيام والناس ايضا .

فالفوضى السياسية التى منيت بها الأمم الاسلامية فى منشأها الاول والتى كانت قائمة فى اكثر ماتقوم على التدمير والتخريب والانتقام من غزوات السلاجقة والتتار وغيرهم — جعلت تهدم فى هذا الصرح الفكرى حتى اتت على الكثير من قواعده ، ولم تبق إلا وشلا من محيط

- وكذلك كان لخمود الهمم وضعف العزائم اثر كبير فى ضياع هذه النفائس وفقدها .

ومهما يكن فقد ابقت الايام لنا من آثار هذا الرجل مقدارا صالحا ، سار

بعضه بين الأدباء ، فكان له فضل عظيم فى تقويم السنتهم وتأدبهم ، وحمت بعضه الآخر خزائن متناثرة فى انحاء المعمورة ، اشار اليه المستشرق الكبير « بروكلمان » فى معجمه . وهى اكثر من سبعين كتابا ، تزدان بها خزائن المتحف البريطانى ، وداماد ابراهيم ، وكوبريلى ، والفاتح والموصل ، وجوتا ، وميلانو ، وغيرها .

وقد أخذت على نفسى عهدا ان اقوم بخدمة هذه المكتبة وبدات منها بكتاب الحيوان ، وعسى الله ان يهب لى من سعة الوقت والحال مايسعفنى باستحضار هذه الكتب ونشرها بين ابناء العربية نشرا علميا صالحا ، وفاء لهذا الرجل العالمى العظيم ووفاء لهذه الدار التى حبب إلى اساتذتها ادب الجاحظ فصرت إلى ان اولع به ولوعا ، واغرم به غراما .

واشكر جماعة دار العلوم لما اتاحت لى من هذه الفرصة السعيدة واهتنها بهذه النهضة الثقافية فى عهدها الجديد ، الذى يذكى شعلته سعادة رئيسها وحضرات اعضائها الأجلاء .

عبد السلام هارون
المدرس بمدرسة الظاهر